فيصل خلف المخلفي

- كاتب سعودي.
- بكالوريوس علوم إدارية.
- **الإنتاج الأدبي:**

ديوان شعري بِاسْم "نواقيس غرام" سنة 2015.

- **المشاركات الأدبية:**

1- مرشَّح مِن مؤسسة الأديب العالمي ثيسار أليخاندرو سيرانو الثقافية (متحف الكلمة) في إسبانيا كسفير للغة الإسبانية في المملكة العربية السعودية.

2- مشاركة شعرية في ملحمة العرب، مِن إصدار مؤسسة عبد العزيز البابطين الثقافية، وهي رسالة مِن الشعراء إلى العالَم، تُرْجِمَتْ لعدة لغات، ونُشِرَتْ حول العالم.

3- لقاء تليفزيوني في برنامج "جلسة نقد شعرية" على قناة البابطين الثقافية (قناة البوادي).

4- أمسية شعرية إدارة التربية والتعليم في حفر الباطن.

الإهــداء

إلى أرواح جميع المناضلين المجهولين في التاريخ.

إلى الأبطال الذين ضحوا بأحلامهم ورغبتهم بالحياة لأجْل أن يكون العالم مكانًا أفضل.

إلى مَن يناضلون حتى اليوم للحرية، ويصارعون غضب الحياة مِن أجْل العيش.

أهدي لكم هذه الرواية التي لن تقرؤوها أبدًا.

فيصل خلف المخلفي

انْتِفَاضَةُ الْمَوْتَى

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON * CAMBRIDGE * NEW YORK * SHARJAH

حقوق النشر © فيصل خلف المخلفي (2021)

يمتلك فيصل خلف المخلفي الحق كمؤلف لهذا العمل، وفقًا للقانون الاتحادي رقم (7) لدولة الإمارات العربية المتحدة، لسنة 2002 م، في شأن حقوق المؤلف والحقوق المجاورة.

جميع الحقوق محفوظة
لا يحق إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه، أو نقله، أو نسخه بأي وسيلة ممكنة؛ سواء كانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نسخة تصويرية، أو تسجيلية، أو غير ذلك دون الحصول على إذن مسبق من الناشرين.

أي شخص يرتكب أي فعل غير مصرح به في سياق المذكور أعلاه، قد يكون عرضة للمقاضاة القانونية والمطالبات المدنية بالتعويض عن الأضرار.

الرقم الدولي الموحد للكتاب 9789948452454 (غلاف ورقي)
الرقم الدولي الموحد للكتاب 9789948452447 (كتاب إلكتروني)

رقم الطلب: MC-10-01-1335973
التصنيف العمري: 17+

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

اسم المطبعة:
عنوان المطبعة:

الطبعة الأولى (2021)
أوستن ماكولي للنشر م. م. ح
مدينة الشارقة للنشر
صندوق بريد [519201]
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
www.austinmacauley.ae
+971 655 95 202

شكروتقدير

إلى أمـــي

في أحد أيام شهر إبريل، وفي مقبرة بير لاشيز الواقعة في مدينة باريس، يقف رجل عجوز في منتصف الستينيات يُدعَى جان فرانسوا أليت، يرتدي قميصًا أبيض، وجاكيت مقلمًا ذا لون فاتح، ويضع قبعة كلاسيكية.

كان يحمل إكليلًا مِن الزهور الصفراء ليضعها على شاهد قبر والده، وبصحبته طفل صغير اسمه فرانسوا.

وبعد أن وضع الإكليل توجَّه إلى القبر المجاور لقبر والده، والذي كان مختلفًا عن بقية القبور، ووُضِع على شاهده علامة الهلال، وكُتِب عليه اسمٌ عربيٌّ بتاريخ وفاة فقط.

بدأ جان بقراءة سورة الفاتحة بصوت رخيم، وبلغة عربية مكسرة غلبتْ عليها التمتمة، وامتزجتْ بصعوبة نطق الأحرف، وما إن انتهى حتى بادره الصغير فرانسوا، وهو طفلٌ حادُّ الذكاء، يبلغ مِن العمر عشر سنوات:

- ما هذا؟

أجاب جان بصوت منزعج:

- ماذا يا فرانسوا؟

فقال الطفل:

- لماذا هذا القبر مختلف عن بقية القبور؟ ولماذا قمتَ تتحدث بكلام غريب أمامه؟

هذا السؤال البريء أعاد جان ستين عامًا إلى الوراء، حينها عاد صغيرًا فجأة، وأخذتْ تدوي صرخات عميقة في رأسه المنهك، وبدا وكأنه يشتَمُّ رائحة الدم والبارود، مَرَّ أمام عينيه سريعًا شريط حياته، لقد عادت به الذاكرة إلى أيام طفولته المؤلمة والتي اغتالتْها الحرب العالمية الثانية.

أجابَ حفيدَه بعد أن تنهَّد قليلًا:

- إيه يا بني، لقد أعدتَّني إلى ذكريات لم تغادرني أبدًا، فالذكريات التعيسة ترافق الإنسان إلى قبره، حيث يبقى وحيدًا معها.

لقد عاد جان إلى الأيام الأولى مِن الحرب عندما قامت القوات الألمانية بغزو فرنسا في أحد تلك الأيام عندما استيقظ ابن السنوات العشر مفزوعًا على صوت صفارات الإنذار التي أخذتْ تدوي في أنحاء باريس، لقد كانت صوت الموت المحتم بالنسبة لسكان باريس، ولم يكد يلتقط أنفاسه ويسترد روحه المفجوعة حتى سمع صراخ والده بصوت مخيف، ذلك الصوت الجهوري الذي طالما خَشِيَه هذا الطفل اللطيف.

دخل الأب فرانسوا أليت إلى البيت مرتبكًا ومرتعبًا، ونادى بصوت عالٍ أشبه بالصراخ زوجته برلنت التي أتت تهرول.. سألتْه بصوت يملؤه الخوف:

- ما بك يا فرانسوا؟ ما الذي حدث؟

أجابها والدموع تتساقط تباعًا مِن عينيه:

- لقد دخل الألمان باريس هذا الصباح، لقد سقطتْ فرنسا.

جثتْ برلنت – تلك المرأة المتدينة اللطيفة التي طالما ما حلمتْ أن تكون راهبة – على ركبتيها، وبدا وكأنها لم تفهم ما قاله زوجها، ثم دخلتْ في نوبة بكاء حادّ، وأخذتْ تصرخ بصوتٍ عالٍ:

- إلهي، ارحمنا يا إلهي ارحمنا.

فرانسوا ذو البِنية القوية والطول المتوسط، في مطلع الخمسينيات، له شاربان عريضان يبدوان إلى اللون الرمادي أقرب، رجل قد تقاعد عن الخدمة في الجيش الفرنسي منذ زمن قصير؛ حيث بقي يحمل رتبة نقيب في القوات البرية، وكان رجلًا عسكريًّا بحق، عاش الحياة العسكرية كحياة حقيقية لن تنتهي أبدًا، حازمًا في جميع تعاملاته حتى مع ابنته الجميلة لونا ذات العشرين عامًا وابنه جان.

وبعد أن هدَّأ مِن روع زوجته قليلًا توجَّه إلى غرفة المعيشة، وأغلق الباب خلفه، ثم جلس إلى الطاولة، ووضع رأسه عليها، ودخل

في نوبة مِن النحيب الموجع، والبكاء المختنق، وخشي أن يسمع أفراد عائلته بكاءَه.

لقد انتهى كل شيء، هكذا اختصر فرانسوا الوضع، لقد اندثرتْ في روحه نشوة الانتصار في الحرب العالمية الأولى عندما انتصرتْ فرنسا والحلفاء على دول المحور في تلك الحرب التي لطالما حدَّث أصدقاءه وأقاربه عنها على تلك الطاولة حينما كان يلتف حولها الجميع في ليالي السَّمر.

كان كثيرًا ما يردد الأغاني الوطنية الفرنسية، ويعلِّق على صدره بزهْو مفرط وسام الشجاعة الذي حصل عليه عندما أنقذ مجموعة مِن جنود الحلفاء الذين كانوا تحت إمرته مِن القتل على أيدي القوات النمساوية؛ حيث أمَّن لهم فرصة الهروب مِن خندقهم المحاصر عندما خرج مِن الخندق، وفتح النار بشكل مفاجئ على الجنود المهاجمين معرِّضًا حياته للخطر، لم يتردد أبدًا، بدا وكأنه يطارد شبح الموت.. أخذ يجري إلى خندق آخر؛ ليجذب النمساويين خلفه، وبالفعل قاموا بمطاردته ومحاصرته.

أيقن فرانسوا وقتها أنه أشرف على الهلاك عندما رمى عليه أحد الجنود قنبلة يدوية انفجرتْ قريبًا منه، وتركتْ آثار جروح غائرة في الجانب الأيسر مِن بطنه وصدره.

ظلَّتْ أوسمة بطولية يفخر بها أمام الجميع وجراحه الغائرة أدلَّة حيَّة على نجاته مِن الموت المحقق حينها أيقن محاربوه النمساويون

بهلاكه، فابتعدوا عنه تحت تأثير نيران كتيبة فرنسية كانت قريبة مِن موقعه، وجاء أفرادها سريعًا لنجدته.

لطالما حكى فرانسوا هذه القصة في ليالي الشتاء الطويلة، وها هو الآن يشهد نهاية فرنسا.

استجمع قواه، ومثَّل رباطة الجأش وقام بتشذيب شاربيه الرماديين، ثم خرج إلى زوجته التي ظلَّتْ تنتحب في غرفة الجلوس.

نادى لونا وجان، وقام بضمهما إليه، وتقبيلهما.

قاطعه طفله جان بصوت مرتعب:

- أبي، ما الذي حدث؟

سكت الأب قليلًا، وأراد أن يخفِّف مِن رهبة ابنه وابنته الخائفَيْن، فخاطبهما بوجه مبتسم قليلًا:

- لابأس يا أبنائي، لقد استُبدِلتِ الحكومة لدينا بأشخاص آخرين، وهذه الأصوات إعلام لنا بذلك.

عرفت لونا الشابة الجميلة ذات الملامح الفرنسية الصريحة كما لو كانت مِن سلالة نبيلة أو هي كذلك، وعندما دخل الألمان باريس تمالكتْ نفسها خشية أن تدخل في نوبة مِن الصرع الذي كان يدمِّر حياتها، ويجعل جمالها لا قيمة له في عينها.

كانت تخشى أن تحب رجلًا وتتزوج منه، أو أن تصبح أمًّا خوفًا مِن أن تخذله.

لونا على غير عادتها بادرتْ بالحديث، وسألتْ والديها بصوت متقطع ومرتعب، وقد تلوَّن وجهها إلى صفر الخوف:

- ماذا سنفعل الآن؟ إلى أين سنذهب؟

قاطع سؤالها طرقٌ قويّ على باب الشقة.. ارتعبتِ العائلة، وأخذ فرانسوا سلاحه الشخصي – وهو مسدس إنجليزي كان قد أُهدِيَ إليه مِن أحد جنرالات الجيش البريطاني بعد الحرب الأولى – وأشار إلى عائلته بالدخول إلى إحدى الغرف.

تواصلَ الطَّرق القوي على الباب.. جهَّز مسدسه، ووضعه خلف ظهره، ثم بادر الطارق:

- مَن هناك؟

بادر بالسؤال وقد استعدَّ لإطلاق النار، فأجابه الطارق:

- أنا نبيل يا سيد فرانسوا.. افتح أرجوك.

ظنَّ فرانسوا أن الطارق مِن الجنود الألمان.. فتح الباب، وقال بغضب شديد:

- أنتَ! ما الذي جاء بك الآن؟ اذهب مِن هنا.

قاطعتْه السيدة برلنت بقولها:

- تفضَّلْ يا نبيل، أنتَ مِن العائلة، تفضَّلْ.

نبيل ذلك الشاب العربي في العشرينيات مِن عمره، ذو الشعر الأسود الكثيف، والطول الفارع، والعينين البنيّتين اللتين تشعُّ منهما الشهامة والنباهة.. قَدِمَ إلى فرنسا منذ أن كان في الثانية عشرة مِن

عمره مِن إحدى المستعمرات العربية في ذلك الوقت قبل أن يستعيد العرب سُلطتهم على أراضيهم مع والدته الفرنسية الممرضة في الجيش الفرنسي آنذاك، وقد تعرَّفتْ إلى والده الذي حملتْه رحلة تجارة له ساقتْه إليها، لم يدرِ بخلده يومًا أن تكون رحلته قدرًا إلهيًّا ليلتقيا، ثم انفجر بينهما حب غريب كبركان عظيم عندما تقابلا للمرة الأولى في مشفًى عسكري حيث تعمل ماري، وكأنما كان كل واحد منهما ينتظر الآخر فيما مضى مِن عمره.

ضحَّى كل منهما بحياته المستقرة، اختار والده أحمد حياة بسيطة في بيت صغير وعمل بسيط، لكنه كان يملك ماري كنزه العظيم وسعادته الأبدية.

وكما كان حبهما خاطفًا كانت نهايته كذلك أيضًا لم يُكتَب لها أن تكون قصة طويلة، وتُوِّجَتْ هذه الرحلة القصيرة بهذا الطفل اليتيم الذي غادر مع والدته إلى حيث تنتمي هي لا هو، وظلَّ غريبًا في وطن لا يعرف فيه غير أنه لا ينتمي إليه، ولطالما كان يتمنى أن يعود حيث ينتمي، لكنه لم يكن يعرف أحدًا في وطنه سِوَى والدته وبعض أصدقاء والده الذين ماتوا قبل أن يغادر إلى فرنسا، وظل هناك حتى توفيتْ والدته بمرض الكوليرا، وتركتْه بين فكَّيْ غربة وفقر.

انتقل بعد ذلك إلى عمل في فرن في مبنى مجاور لشقة العائلة تمتلكه السيدة برلنت التي هي بمثابة أمه لما كانت تربطها قرابة دم مع والدته، وقد اتخذتْ له غرفة متواضعة كعمله البسيط في

مستودع الطحين خلف الفرن ذات باب خشبي، وأرضية عارية إلا مِن آثار الطحين والتراب.

*****

دخل نبيل إلى المنزل، ثم بادرتْه السيدة برلنت بابتسامتها المعهودة بالسؤال عن صحته.

اجتمعتِ العائلة برفقة نبيل في سرداب المنزل، وقد ارتدوا أقنعة الغاز خوفًا مِن هجوم ألماني بالغازات السامة، ظلَّت حينها أصوات مدفعية الجيش الألماني المتقطعة، وضجيج مقاتلاته الفتاكة، ومضادات الطائرات الفرنسية تدوي في أرجاء العاصمة.

لم يستطع أحد أن يخرج في تلك الليلة، بقوا جميعًا ينصتون إلى الراديو على أمل سماع أخبار جيدة.

بقي الإرسال متقطِّعًا، ويبث أخبار الهجوم القوي، ثم انقطع لمدة تزيد عن ثلاث ساعات وجمَ بها الجميع، حتى عاد مجددًا بإعلان يتلوه أحد الضباط الألمان موجهًا إلى الشعب الفرنسي.. كان بيانًا عسكريًّا بِاسْم هتلر يعلن خضوع فرنسا لحكم الرايخ الألماني، وأنه يجب على الجميع المكوث في منازلهم إلى حين صدور بيان آخر.

قام فرانسوا بنزْع القناع عن وجهه قائلًا:

-إن الموت هو أعظم شيء يناله الفرنسي في هذا اليوم، وأنه لن يعيش تحت حكم ألماني.

بصمتٍ مطبق على أفواه الجميع طلب نبيل الإذْن مِن السيدة برلنت بالخروج إلى الفرن، لكنها رفضتْ بشدة، لكنَّ رغبة نبيل بالخروج منطلقة مِن استياء فرانسوا منه، لمْ ينسَ أبدًا مواقفه السيئة معه حين رفض عمله مع زوجته حتى رضخ لإصرارها الشديد، كان يعرف أكثر مِن غيره مدى عنصرية فرانسوا ضد أبناء المستعمرات وضد كل ما هو غير كاثوليكي.

قام فرانسوا بالخروج مِن القبو، وحمل طفله جان بين ذراعيه ليضعه على سريره، لم يتحرك الطفل أبدًا، وبدا شبهَ ميّت مِن شدة إرهاقه، لم يصدق أن صوت الاشتباكات قد انقطع حتى غفا على مقعده دون شعور، لم يكن أحد يستطيع الأكل أو الحديث في هذه الظروف.

استأذنت السيدة برلنت وابنتها مِن نبيل بالصعود إلى غرفهما للنوم، وأخبرتْه أنه باستطاعته النوم في غرفة الجلوس؛ حيث ظلَّتْ تراه بمثابة ابن لها.

صعد الجميع، وبقي نبيل وحيدًا مستلقيًا يفكر بهذا التطور الرهيب، حنَّ إلى بلاده، وفكَّر بالرجوع إليها، لكن في هذه الظروف استحال ذلك.

فكَّر أيضًا في مصيره وفي مصير لونا الجميلة ابنة العائلة التي لطالما كان معجبًا بها، إلا إنه لم يكن يملك جرأة الحديث معها في خضمِّ هذه الأفكار المرهقة.

سمع خطوات على درج المنزل، كانت رائحة الخزامي تداعب أنفه لم يصدق ذلك.. إنها لونا.

لم تستطع لونا النوم، ولم يكن لها أي شخص مقرَّب.. اقتربتْ مِن باب الغرفة التي بها نبيل، واختلستِ النظر إليه خوفًا مِن أن يكون نائمًا.. ظل يترقب دخولها بلهفة.. شعرتْ بالخجل الشديد عندما لمحتْ ابتسامته، فأرادتْ أن تعود إلا إنها سمعتْه يناديها:

- آنسة لونا، تفضَّلي.

عادت أدراجها، ودخلتْ إلى الغرفة.. جلستْ على كرسي مجاور لنبيل، وقد أتت وهي ترتدي ثوبًا ورديَّ اللون يعبق برائحتها المميزة التي تشبه رائحة الخزامي.. كانت أنيقة في كل الأحوال والظروف.

بين رهبة نبيل وخجل لونا ظلَّ الصمت سيد الموقف:

- كل شيء سيكون بخير.

هكذا حاول نبيل بهذه الكلمات البسيطة المقتضبة والابتسامة المصطنعة أن يكسر حاجز الصمت المربك بابتسامة عاشق دافئة. لامستْ كلماته قلب لونا.. بدأتْ بالحديث له:

- يا سيد نبيل، كم كنتُ أخشى مِن أن يأتي مثل هذا اليوم، كنتُ أسمع قصص الموت والخراب في الحرب الأولى، كنتُ أسمع بكاء

الأرامل عندما يذكرن أزواجهن، واليوم نحن سنكون مثلهم، هذه الحرب اللعينة لا تستثني أحدًا.

كانت رغبتها بالبكاء أكثر قوة مِن خجلها.. انهمرتِ الدموع من عينيها، وأخذتْ تبكي بصوتٍ طفولي، وبلا شعور منه قام نبيل بالاقتراب منها، وأمسك بيديها محاولًا أن يخفف عنها.. أحسَّتْ لونا فجأة بدوار وتصلُّب في بدايات أطرافها.. كانت نوبة صرع مفاجِئَة! وقعتْ على الأرض، وصعد نبيل سريعًا إلى غرفة والدتها.. أيقظها بسرعة، وأتت بسرعة فائقة إلى ابنتها.

كان موقفًا مرعبًا لنبيل، لم يكن يعرف كغيره مِن الناس أنها مصابة بهذا المرض.

طلبتْ منه السيدة برلنت الانصراف إلى غرفة أخرى، إلا إنه خرج مسرعًا إلى مستودع الطحين حيث ينام.

كانت الساعة تقارب الواحدة فجرًا، والظلام مطبقًا في الخارج، وصوت الآليات الألمانية يكسر هدوء الليل بصوت مخيف يؤذن كل مَن يسمعه بالموت المحتم.

توجَّهَ إلى المخزن.. دخل مسرعًا، ورمى بنفسه على سريره الخشبي المتهالك، وبكى كطفل صغير محطَّم.. ظنَّ أن لونا سوف تموت، لم يستطع حتى أن يخبرها بأنه يحبها.. كانت صدمة أعظم مِن كل شيء حدث له، ثم نام أخيرًا بعد ساعتين مِن البكاء.